الأزهر وبعثاته العلمية

للدكتور محمد البهي

حقاً — كما يقول صديقي الفاضل الأستاذ محمود الشرقاوي في عدد الرسالة الأخير (٣٩١) تحت عنوان « الأزهر وبعثاته العلمية » — أن الأستاذ الأكبر المراغي كان جريئاً يوم أرسل بعثة « فؤاد الأول » إلى أوربا عام ١٩٣٥ ، وأن سعادة عبدالسلام الشاذلي باشا كان جريئاً أيضاً أو أشد جرأة يوم أرسل من قبل بعثة الإمام محمد عبده سنة ١٩٣١ لأنه أرسلها في وقت كان الأزهر ممثلاً في شخص شيخه السابق ضد فكرة إرسال البعوث من الأزهر إلى أوربا . ولولا لباقة الشاذلي باشا في أن أتاح لمسعى بعثة الإمام محمد عبده التشرف بمقابلة جلالة الملك الراحل ، الملك فؤاد ، والاستماع إلى رغباته السامية فيما يجب أن يكون عليه الأزهر لخلد ذكرى الإمام بشيء آخر غير بعثة أزهرية توفد إلى جامعات أوربا لتربط ثقافة الشرق الماضي بثقافة العصر الحاضر .

وكان الشاذلي باشا جريئاً ، وكان الأستاذ الأكبر المراغي جريئاً كذلك في إرسال هذه البعوث الأزهرية إلى أوربا ، لأن ذلك منهما اعتراف بحاجة الأزهر إلى توجيه جديد في البحث والتفكير ، وفي الوقت نفسه اعتراف بجمود الثقافة الأزهرية ووقوفها عند حد معين لا تتجاوزه وهو ما وصل إليه المسلمون إلى القرن الخامس عشر تقريباً . والاعتراف بهاتين الحقيقتين في وقت يسيطر فيه على العقلية الأزهرية مبدأ « لم يترك الأول للآخر شيئاً » ، وتسيطر فيه كذلك فكر « الكتاب » في الدرس والبحث لاشك أنه يحتاج إلى جرأة وإلى جرأة كبيرة .

وكان حقاً أيضاً أن يسأل صديقي الفاضل الشرقاوي عن إنتاجنا العلمي وأن يحاول شرح « عدم إنتاجنا » — إن وصل إلى ذلك — بما ذكره : « إلى أن نرى أثركم وإنتاجكم وتجديدكم وما جعلتم في الأزهر من بيئة علمية جديدة وثقافة جديدة وحرية جديدة في البحث . سنقول إنكم لم تفيدوا شيئاً مما تعلمتم ولا تميز لكم على من لم يبعث ولم يدرس في جامعات أوربا أو أنكم لا تجدون من أنفسكم شجاعة ولا قوة لكي تكونوا منتجين ولا مفيدين »

وهذا الذي يسأل عنه الصديق سألني عنه كثير من إخواني ومعارفي في غير البيئات العلمية ، في وزارة الخارجية ؛ ولكنهم فقط لم يواجهوني بما حاول أن يجيب به الأستاذ الشرقاوي . وبالرغم من ذلك كنت أشعر أنه يتردد في نفوسهم

* * *

صحيح أننا لم ننتج بعد إنتاجاً جامعياً يتمثل في تأليف يقوم البحث فيه على الاستقلال في التفكير وعلى إبداء رأي خاص في مشكلة من مشاكل العلم الذي تخصصنا فيه ، حتى يدمج

إن الإنسان يأتي بأعمال عظيمة في صميم غايات الحياة وهو عنها غافل لا يدرك ماذا تكون نتائج عمله في مستقبله ومركزه .

وإن مصانع « فورد » مثلاً تخرج في كل ثانية واحدة سيارة كاملة ! هذا جبروت وملكوت إنساني واسع يتفتح أمام عيون الراصدين لحركات الابن البكر للأرض !

فهذه السيارات حيوانات حديدية تولد كاملة من أصلاب المصانع وأرحامها ولا تحبو ولا تدرج ببطء الطفولة وإنما تسير بسرعة الفكر الإنساني كما قدمنا في هذا المقال ...

وهي وأشباهها مما تنتج من الفتاح بين الفكر والحديد قد ملأت الأرض وأذلت دولة الخيل والبغال والإبل ، وصيرتها أشياء أثرية يوشك الناس أن يحتفظوا بها في المتاحف أو حدائق الحيوان ...

* * *

في كل ذرة رمل ، وقطرة ماء ، ولمة شعاع ، وخفقة نسيم ... كنز مدخر لمستقبل الإنسان على الأرض ...

فليعرف ذلك الذين يشكون الفقر وشح الموارد الطبيعية . أولئك الذين يثيرون الحروب من أجل الطمع والاغتصاب « أن تكون أمة هي أربى من أمة » وليسلموا قياد الإنسانية لعلماء الطبيعة الذين يضربون معاولهم على كل منجم في الأرض والماء والهواء والشعاع

ولنأخذ الحياة عريضة ؛ بالانتفاع بكل ما في الأرض ، وباستعمال جميع قوى الإنسان والجماد والحيوان ، وباستخراج كل كامن من النبات والركاز ، وباستنزال كل معلن من الشعاع والماء والهواء وبتوليد كل ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى ، وبوضع كل شيء أمام كل شيء لينشأ من الأوضاع المختلفة التي لا عد لها حيوات جديدة معقدة لا عد لها ، يترقى بها الفكر والحياة وينزر فيضهما وترحب بها آفاق النفس ، ويظهر لنا بعدها أن الكون ملىء بالأسرار وكلمات الله التي لا تنفد .

عبد المنعم خلوف

هـذا البحث ضمن البحوث العلمية فيكمل ناحية نقص فيها — وذلك طبعاً غير التأليف المدرسي ، فقد أخرجت من هذا النوع ثلاث مذكرات : في الفلسفة الشرقية ، وفي الفلسفة الإسلامية ، وثالثة في علم النفس العام (بالاشتراك مع الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد في هذه الأخيرة) — . ولكن ليس عدم إنتاجنا الجامعي راجعاً — كما يقول الأستاذ الشرقاوي — إلى أننا لم نفد شيئاً مما تعلمنا في أوربا ، ولا إلى أننا لم نجد من أنفسنا شجاعة ولا قوة لكي نكون منتجين ولا مفيدين ، بل يرجع إلى حالة أخرى خارجة عن معرفتنا وشجاعتنا ؛ يرجع إلى بيئة الأزهر العلمية

الأزهر يغاير الجامعة في أن بيئته العلمية لم تهيأ بعد (تمام التهيؤ) للأبحاث العلمية الحديثة ، للأبحاث الجامعية . لأن هذه تقوم أولاً على حرية النقد ، وهذا معناه عدم منح القداسة لبعض المواد دون بعض . وثانياً على عدم التقيد « بالكتاب » كمصدر للبحث ومقياس للحقيقة . والأزهر — في الواقع — يسير في أبحاثه على منح القداسة لبعض المواد دون بعض — وإن كان بينهما شديد الشبه من وجهة البحث — وعلى التعلق بمبدإ الكتاب . نعم مناهج التعليم لا تنص على كليهما ولكنهما من الأمور المتوارثة التي أصبح لها حرمة المبادئ العامة . وليست العبرة في ملاحظة الظواهر بما يقوله المنهاج ، ولكن بما تنبه النفوس

فمثلاً يفرض منهاج التعليم في الأزهر تدريس الفلسفة ، وأزيد من هذا يجعلها مادة أساسية في كلية أصول الدين ؛ ولكن الفلسفة في نظر كثير من الأزهريين ما زال منها « الفاسد » ، وهو أكثرها ، و « الصحيح » ، وهو أقلها . وما زال كثير منهم يخفي في نفسه الضغينة للفلسفة والفلاسفة ويضعها في مرتبة دنيا عن علم الكلام ، مع أن هذا الأخير يشارك الفلسفة الإلهية في الموضوع وفي الغاية ، وهي محاولة تحديد الإله أو مبدإ الوجود وعلاقته بالكون وبخاصة بالإنسان . ومع أن الفلسفة الإغريقية التي نقلت إلى المسلمين كانت سبب ثرائه وغنائه . هذه التفرقة أثر متوارث عن الغزالي ؛ فكتابه « إحياء علوم الدين » قد أصبح منذ القرن الثاني عشر إلى الآن صاحب الكلمة في التوجيه الديني وفي تحديد علاقة البحث العقلي بالدين.

والغزالي هو صاحب « تهافت الفلاسفة » ؛ وهو صاحب الرأي : بثلاثة كف الفلاسفة العدا . . . .

وهجومه ضد الفلسفة كان السبب غير المباشر في اختلاف الرأي في جواز الاشتغال بالمنطق — وهو فرع من الفلسفة — أو عدم جواز الاشتغال به أو التردد بين الحرمة والجواز :

فابن الصلاح والنواوي حرما ... وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة

فمنهاج التعليم العالي في الأزهر وإن فرض تدريس الفلسفة إلا أنها لا تتمتع بقداسة ولا احترام كما يتمتع علم آخر كعلم الكلام مثلاً

وكما أن مبدأ « قداسة » بعض المواد دون بعض يسود التعليم في الأزهر ، كذلك مبدأ « الكتاب » إذ أن « مدرس الموضوع » لم يخلق بعد في الأزهر وإن كان في طريق الخلق والتكوين . فالحقائق العلمية في مادة من المواد مصدرها كتاب معين بالذات ، والتمكين في الخلافات العلمية ومشا كل البحث لم يزل إلى كتاب مخصوص . ولعل مبدأ الكتاب فرع عن مبدأ القداسة لأنها إذا منحت لمادة من المواد قد تتعداها لأمر ما ، إلى مؤلف بالذات فيها

وبيئة مثل هذه البيئة التقليدية لا تقبل طبعاً بسهولة نتائج البحث العلمي الحديث لأنها قد ترى فيها ما يجرح عاطفة عندها تحرص على صيانتها . وعلى صاحب البحث الجامعي قبل أن يبرزه إلى الوجود أن يهيئ النفوس له بالتوجيه تارة ، وبالنقاش فيما ألفته وصانته حتى الآن عن النقاش تارة أخرى ، وإلا كانت نتيجة بحثه الجامعي سلبية محضة ، وكان شأن هذا الباحث شأن القانون الذي فرض مادة في منهاج الدراسة لم تهيأ لقبولها النفوس بعد في الإهمال وعدم الاعتبار

وهذه التهيئة كانت ـ وما تزال ـ من مهمتنا ؛ وهي مهمة ليست يسيرة . كم كان شاقاً ما صادفني من صعاب في العام الماضي عند عرض فلاسفة المسلمين ! فكانت نفوس الطلاب متشوقة أولاً وبالذات إلى سماع الحكم عليهم بالإسلام أو بالكفر . ولم أفلح إلا بعد جهد مضن في إقناعهم بالفصل بين القيم المختلفة ، وفي أن مهمة مؤرخ الفلسفة الحكم على الفيلسوف من ناحية إنتاجه العقلي فحسب